قصة الخلق بين النسبي والمطلق

القس. جرجس جورج

"كي ترى العالم في حبة رمل، والسماء في زهرة برية، حِط بالكون في راحة يديك وبالأبدية في ساعة زمنية" ويليام بليك، الكون في راحة اليد.

يظل الإنسان يبحث في شغف عن أصل الوجود، الحياة، الموت وما بعد الموت. ومنذ القديم، وفكر الإنسان متعلق بالمالانهاية، فسّرها بالأسطورة، وخاف من المجهول، فخلق الخرافةَ. تطور فكرُه وإبداعه ونضوجه العلمي والفلسفي والديني فأطلق لخياله العنان؛ نجده يبحث حائرًا بين الحقيقة والمعتقد، بين المقدس وغيره، بين الثابت والمتغير، حائرًا بين المطلق والنسبي.

وما نقف أمامه متعلقٌ بمدى فهمنا للوحي فيما يتناوله كتابُ التكوين عن الخلق من جهة ونسبية التفسير أو التأويل للقصة الكتابية من الناحية الأخرى.

تعريف الوحي

التعريف البسيط للوحي المكتوب أنه هو كلمة الله مُصاغة في لغة وثقافة البشر. "تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (2بط 1: 21)، وفي الحقيقة هذه الكلمات تحمل أبعاد الوحي بشقَّيْه الإلهي والإنساني، المطلق والنسبي. فالوحي هو نقطة التماس التي التقت عندها القدرة بالعجز، غير المحدود بالمحدود، اللانهائي مع المتناهي، المطلق مع النسبي. إن نقطة الالتقاء هذه هي تفاعل وشراكة، وتكامل بين الله والإنسان، (التكامل في ما يختص بالإعلان والوحي) وليست نقطة صراع أو اضطراب. كما أن فرضيات التوافق هذه تتيح للإنسان حرية التعامل مع النصوص المقدسة وإدراك المتناقضات سواء الظاهرية أو الفعلية.

كاتب الوحي بين النسبي والمطلق

نجد قصص الخلق منتشرة في ثقافات وأساطير عديدة بمثابة إعلان مبدئي ومحاولة إبداعية للفهم. فالله فاعل في التاريخ البشري ومتواصل معه. فقصة التكوين وما قبلها من صور مختلفة للإعلان هي محاولة النسبي أن يفهم المطلق، وربما هناك ثمة تصالح بين المطلق والنسبي. فكلما زاد الوعي ندرك أن القصة المكتوبة ليست بالمُطلق المجرد ولكن فيها يتشابك المُطلق مع النسبي؛ فكاتب التكوين لا يعرض الحقائق المطلقة لتأسيس العالم من وجهة النظر الفيزيائية والرياضية ولكنه يصيغها من وجهة النظر المطلقة الإيمانية، حتى هذه النظرة المطلقة الإيمانية مقولبة في الإطار النسبي للكاتب حسب ما وصل إليه من إعلان. فالصورة المطلقة للخلق لا بد أن يُنظر إليها بمنظور نسبي حيث إنه لا يمكن فهم وتفسير كل أبعادها. فهذا الموجود المادي النسبي –المخلوقات- يشير إلى المطلق الإيماني في صياغات نسبية. "اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلاَمًا، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْل يُبْدِي عِلْمًا" (مز 19: 1-2)، "لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ" (رو 1: 20).

في مرحلة أكثر تلامسًا مع البشر تطوّر الإعلانُ العام إلى وحيٍ مكتوب؛ فالكاتب يحكي قصة الخلق ليس سردًا مجردًا لكنه يزامن -لو جاز التعبير- ثلاثة أزمنة:

- الزمن الأول، زمن الله وهو غير مُدرَك لا في الزمان ولا في المكان المعروفين لدينا.

- الزمن الثاني، زمن حدوث القصة؛ أي الخلق.
- والزمن الثالث، هو الزمن الذي يعيشه الكاتب.

فتعامل مع المطلق على أنه الموجود بذاته، وانتقل بين الماضي والحاضر جعل الزمن يلتقي ماضي القصة بحاضره، إذ استحضر القصة القديمة، قصة التكوين، دامجًا إياها بواقعه المعاصر مستخدمًا مفرداته النسبية، بعقله النسبي ليعبر به عن حقائق.

مصطلحات وتعبيرات

اعتمادًا على فهم الطريقة التي كُتب بها الوحي وكيف استخدم الكاتب مصادره ونظرته الخاصة ليُعبر عن المطلق بلغته النسبية ويزامن الأحداث بلغته القديمة الحاضرة، هكذا يجب على المفسر فعل هذا للوقوف على المتغيرات وتوضيح الثوابت في مرونة حقيقية وثبات غير جامد.

ففي التعبيرات: "في البدء"، "وقال الله ليكن فكان...".

في البدء، بحث الإنسان في أصل التكوين ليُرجع كل شيء مخلوق من العدم؛ ذلك العدم الذي لا نستطيع أن نُعرّفه. فمن العدم خلق الله الموجودات، بالرغم من أن هذا العدم غير موجود. في حقيقة الأمر لو جاز استخدام كلمة حقيقة إن إدراك الخلق من "العدم" يفوق الإدراك النسبي، ولكنّه سعي مركب لتعريف اللاموجود بأنه العدم الذي من خلاله أوجد الله الموجودات. فالله وحده هو أساس الوجود.

ونجد أيضًا مفردات نسبية مثل: مفهوم النور، اليوم، الترتيب في أيام الخلق، وجود قصتين للخلق، ليس للتناقض أو غموض بل أمانة وفهم واعٍ من الكاتب لشرح معتقد وإيمان.

فما يتعلق بالإنسان في إطار زمانه ومكانه لا يمكن صياغته سوى بشكل نسبي؛ فهي تابعة للإنسان ومتغيرة المفهوم والقصد. وكل ما هو خارج المكان والزمان فهو مطلق غير خاضع لمتغيرات الإنسان.

النور: وهو ليس الشمس أو القمر، ولكن العلماء يفسرونه على أنه السدم الكونية. ويعتقد البعض أن هذه الآيات متعلقة أو تشير إلى خلق الكون. بالرغم من أن قصة الخلق تعنى في الدرجة الأولى بخلق الأرض والمخلوقات لأجل الإنسان الذي هو محور القصة. ونحن لا نرى هذا النور وذلك لوجود الشمس والقمر. ولأنه في الكون الخارجي.

مساء وصباح كان يومًا: نحن نتصارع حول مدة هذا اليوم، هل هو 24 ساعة؟ أم حقبة زمنية غير معروفة من الممكن أن يقدرها العلماء؟

لو عرفنا وفهمنا أن الله خارج إطار الزمن، وأن تلك القضية بعيدة عنه لتصالَحنا مع العلم وتأكدنا أن اللحظة وملايين السنين تتساوى أمام الله فهو القدير الذي ليس لديه زمن حيث إن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة له تعالى هو حاضرٌ. لذا لا مانع أن تكون أيام الخلق حقبًا زمنية.

أما بالنسبة لاستخدام كلمة (يوم، مساء، صباح) فهي مفردات وصياغة الكاتب ليعبر بها ويسرد بها قصة الخلق. حيث إن الشمس خُلقت في اليوم الرابع حسب ترتيب القصة والتي دُونَها لا يكون مساء أو صباح.

النوران العظيمان: "فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ"، وهنا كاتب التكوين ينتزع الألوهيةَ عن الطبيعة عن الشمس والقمر؛ ففي قصته هنا يرفض الوثنية فيسمي الشمس باستعارات وتشبيهات ولا يذكر أسماءها بشكل صريح، فيطلق عليهما النيرات أو المصابيح وكأنه يفكر في خلفية تفكيره في الهيكل، وكأنها المصابيح التي تنير هيكل الله. فالكون هيكل الله والشمس والقمر ماهي إلا مصابيح مخلوقة في هذا الإبداع. فالله هو القدرة الخالقة التي تعتني وتحيط بالأشياء.

ويأتي خلق الإنسان في الرواية الثانية والتي تُعتَبَر الأقدم في صور حسية ملموسة لتضع غاية سردها وهو جعل الإنسان محور القصة وقمة الخليقة. لابد أن ندرك التعبيرات النسبية والحسية المستَخدَمة عن الله؛ فالله بالنسبة للكاتب شخصٌ يتفاعل مع الخليقة. فتعبير "جبل، نعمل، نصنع، نفخ" وكل التعبيرات البشرية- فالنسبي يصيغ المطلق في مصطلحاته- التي يعكسها الكاتب على الإله ليُظهر مدى تفاعله وهي نوع من أنواع الأساليب التي يستخدمها الكاتب والتي يتعامل بها الله بشكل أو بآخر مع المخلوقات. الإنسان بمعنى أدق.

وهنا الله نفخ مصدر الحياة للإنسان، خلق له الجسد ونفخ فيه الروح. وهذه الروح ليست الروح القدس، ولكنها الروح الإنسانية، وبمعنى أدق تلك القوة التي تحيي، والتي تفكر، والتي تبدع، والتي تدرك وتختار ولها حرية الإرادة.

جزء مادي ترابي وجزء آخر لا نعرف ملامحه يسمونه البعض روحًا أو نفسًا والبعض الآخر يسمونه الإرادة الحرة، وهناك من يدعونه الفكر، أيًّا كان، القصة تحكي أن مصدره الخالق.

والفكرة هنا صياغة الإنسان بأن يكون مكرمًا من الإله على عكس الروايات الأخرى من الخلق التي تجعل منه عبدًا ومصدرًا للصراع. فالخالق هنا يخلق على صورته، يشارك الوجود لكائن يأخذ صفاته، ويأخذ ما له بشكل أو بآخر. فالخالق لا يصارعه بل يهبه مميزات وشخصية تعكس صورة الإله. فالإنسان هنا يتسلط وصاحب سلطان على المخلوقات والخليقة وليس عبدًا لها. وهذه الصورة يعكسها الكاتب ليوضِّح مكانة الإنسان.

الإنسان في القصة الأولى للخلق هو ذكر وأنثى. في القصة الثانية خلق الله آدم الذي يحتاج إلى حواء ليس الهدف التتابع من حيث الأهمية ولكن التكامل فكلاهما إنسان. فالإنسان ذكر وأنثى. فلا يوجد آدم دون حواء ولا حواء دون آدم. وهذه الفكرة تساعدنا في اكتمال الصورة في القصة الثانية وهي خلق آدم أولًا ثم حواء، لأن أهمية وحدة الإنسان ضرورية أن نعلم بها.

- **شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر**

خلقهما الله وسط الجنة، خلق النباتات والأشجار ولم يسمِّ أيًّا منهم. لكن التسمية هنا رمزية. فكرة بسيطة. إعلان مبدئي رمزي، يشير في رمزيته إلى واقع إيماني حادث. وهنا لا مجال للعلم ولكن القصة تحكي إيمانًا. في شجرة الحياة، هو مبدأ الحياة في العلاقة والشركة مع الله. أما في شجرة معرفة الخير والشر فهو مبدأ الامتحان. أي أنها مجال تحقيق الإرادة وحرية الاختيار.

- **الجنة:** الله صنعها لتكون مكان الشركة والعلاقة معه، ومكانًا لتحديد مسؤولية آدم وتطوير مهاراته ونموه المعرفي. "لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا".
- وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: "مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ".

والوصية هنا تعني أمورًا كثيرة منها:

- الوصية فرصة للإنسان لإثبات حريته، فالوصية تعني أن هناك دائمًا إمكانية أن تكسرها.
- الوصية تشير إلى أن آدم شخصٌ أهلٌ راشدٌ، عاقل، بالغ، قادر على الفهم واتخاذ القرار. فآدم الذي أوصاه الله قادر على فهم الوصية مدرك لها ولأبعادها. فلا فائدة للوصية لو كانت لشخص غير أهل، لطفل مثلًا أو لشخص غير مدرك. فالوصية تكتسب شرعيتها ليس فقط من الله ولكن أيضًا من وعي وإدراك آدم لها.

قال البعض إن آدم شخصية رمزية مثل باقي القصة، وإنه كان هناك بشر آخرون قبل آدم. وحتى إن افترضنا صحة هذا المعتقد، فهناك آدم الذي يشهد عنه وجودنا نحن. وهذا الآدم مخلوق، ومن امتحنه الله هو آدم -إنسان- قادر على الفهم والتحليل. فربما كان قبل آدم بشرًا في طور الإنسان البدائي، فهذا البدائي لم يصبح بدائيًّا، بل أصبح قادرًا على الاكتشاف، والبقاء، وصنع حضارات. لذا آدم الذي امتحنه الله هو الإنسان الأول القادر على فهم الوصية.

- الوصية تحوي جزءًا عن الحرية، "من جميع شجر الجنة تأكل". فكرة الحرية والتنوع في الاختيار.

- الوصية هي التطور الطبيعي في طريق كمال الإنسان واختبار دوافعه لدى نفسه، لأن الله يعلمها.
- الوصية بعدم الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، فهي مبدأ الامتحان، وليست مبدأ التجربة. فالامتحان هدفه التقدم والنجاح، وأن يعبر الممتحن من مستوى أقل إلى مستوى أعلى، فالنية من الامتحان ليست الفشل، أما النية من التجربة فهي الإغواء والفشل.

الوصية ضرورية لجعل الإنسان كاملًا؛ لأن كمال الإنسان لن يكون سوى بقدرته على الاختيار واتخاذ القرار، فالوصية أعطت آدم هذه الفرصة.

- **الحية:** الحية هذا الكائن الذي يرمز لمبدأ التجربة والخطية. واعتمادًا على النسبي والمطلق في التفسير؛ فهي تفسر بهذا الشكل كونها رمزًا للتجربة. لكن في موضع آخر هي رمز للحكمة والشفاء بل ترمز إلى المسيح بشكل واضح في الحية النحاسية. لذا الخلفية وقرينة النص بالغة الأهمية.
- **انحلال الجسد:** مبدأ الموت. وعلى آدم أن يكون قد فَهِمَ الموت بكيفية ما. هذه التفاصيل لا يدخل فيها الكاتب، فآدم الأول حاضر عنده في حاضره والمفاهيم التي يسردها في القصة الأولى هي مفهومة بالنسبة للحاضر المعاصر للكاتب فهو لا يصارع ولا يبحث فيها بل يقرها حقيقة مطلقة. لذا فالموت بمعانيه المختلفة يُفترض أن يكون آدم يفهمها ويدرك أبعادها.

والدعوة هنا لفهم النسبي والمطلق من وجهتي نظر: وجهة النظر الأولى، هي وجهة النظر الأصلية لكاتب الوحي، كيف فهم الرسالة وكيف صاغها وكيف تعامل ومع المطلق الذي هو خارج إرادته وخارج زمانه ومكانه؟ وكيف تعامل مع النسبي دون الخلل بإيمانه؟ ووجهة النظر الثانية، وجهة نظر مفسر قصة الخلق أو الإصحاحات الأولى من التكوين.

لذا لا يمكن أن يكون كل شيء متغيرًا -نسبيًّا- ولا يمكن أن يكون الكل مُطلقًا. فلو فرضنا أنها معادلة رياضية مكونة من ثلاثة متغيرات -مجاهيل- وجب على الراغب في حل هذه المعادلة -لكي يجد قيمة المتغيرات- أن يفترض ثابتًا constant، الذي من خلاله يأتي بقيمة المجاهيل حيث إنه لا يمكن أن يكون الكل متغيرًا.

فهم القصة القديمة، للبحث عن الإيمان بالمطلق ووجوده. وإيمان بقدرة الإنسان على الوعي والفهم والسعي نحو غاية المعنى من الوجود.